

أبعاد جرائم الاستعمار المادية والمعنوية ، اللغة العربية نموذجاً

أ.مداح عبد القادر

جامعة ابن خلدون. تيارت

مقدمة

الاحتلال الفرنسي للجزائر تاريخ يمجده هو، وتاريخ نجرمه نحن. وكل ميدان في حياة مجتمعنا يشهد بجرمه وأحيانا بفضاعة ذلك، وما من مظهر من المظاهر التي تشير إلى وجوده المادي والمعنوي، إلا وحاول اقتلعه من جذوره. وقد صدق كذبه بعدم وجود كيان جزائري في حقبة من حقبة التاريخ، ورغم أنه كان يعلم أنه ضد المسار الطبيعي والتاريخي في آن واحد. وتيقن منظره بهذا الخصوص وأعماهم الحقد والغرور، رغم أنهم تحققوا من خطأ فرضياتهم المزعومة في المستعمرات السابقة وفشلهم في تحقيقها. فصاغوا الخطط نفسها لإعادة الكرة في الجزائر، لكن بدراسة شاملة واستراتيجيات محكمة، ودعم مادي واللوجستي من القوى الاستعمارية، وبدأ الصراع.

إذا تفحصنا الصراع الذي حدث بين الاحتلال الفرنسي والشعب الجزائري، منذ أن وطئت أقدامه الجزائر؛ هو صراع إثبات وجود، أو صراع بتعبير المناطق بين كيان موجودا وليس حاضرا وحاضرا موجودا وليس كيانا. فالمسألة مسألة الهوية الشخصية، التي حاول الاحتلال في البداية عزلها عن انتمائها الطبيعي، وامتدادها الحضاري، وبعد ذلك طمس هويتها وسحق وجودها، فاستعمل كل الأساليب المشروعة وغير المشروعة لتحقيق ذلك.

-أهداف الاحتلال الفرنسي

لقد ركز الاحتلال الفرنسي في الجزائر على العنصر البشري (الإنسان)، إما بعزله عن انتمائه، أو دمج، أو طمس هويته¹، وبسط نفوذه على أرضه واستغلال تراها. كما ركز على الزمان، حيث حاول سلخ آلاف السنين، بل قرون من ماضيه، وحذف من سجل التاريخ أجيال تعاقبت على هذه الأرض.

إن الظروف كانت في صالح المحتل، وخدمت سياسته الاستعمارية، وحققت بفضل ذلك بعض الأهداف ونقصد بذلك العهد العثماني.

لقد مثل العهد العثماني التربة الخصبة منذ البداية. حيث كانت العلاقات الفرنسية العثمانية ودية، والتي يمثلها الباب العالي زمن سليمان القانوني، تحتم على أوجاق الجزائر، التي هي ولاية من الإمبراطورية، أن يكون صديقا لفرنسا. وقد عرف الفرنسيون كيف يستفيدون من صداقتهم مع أوجاق الجزائر²، وبدأ رسم الخطط منذ ذلك الحين بأبعاد مادية ومعنوية. فالمادية هي التسلط على الحجر والبشر، والمعنوية تمثلت في هدم أركان الثقافة والدين واللغة. حيث لا تختلف الوسائل في تطبيق هذه السياسة إلا من حيث التسمية.

- الأعراض العامة

انحدار المستوى الثقافي، وغياب التعليم، وانتشار الأمية في العهد العثماني إلا في بعض الحواضر، ساهم بشكل كبير في تردي أوضاع المجتمع الجزائري، بالإضافة إلى انتشار الاستبداد والإقطاع خلق ردة فعل، تمثلت في مقاومة معنوية تمثلت في اللسان الذي عبر لنا عن التذمر الشعبي لذلك العهد، والنصوص الثرية والقصائد الشعرية والعامية على وجه الخصوص غلبت على غيرها دلالة على الضعف الثقافي وستمّر الحال إلى الأسوأ في الفترة الاستعمارية. ويعزى السبب في ذلك أن الحكام أجانب عن الجزائر نتج عن ذلك تدهور في التعليم باللغة العربية. فلجأ المجتمع الجزائري إلى الدين، ووجد ملاذا في الطرق الصوفية وزواياها، التي عوضت المدارس الرسمية، واضطلعت بدور الحافظة التي صانت الموروث الثقافي لهذا الشعب، وحافظت على اللغة العربية؛ سواء بتعليمها أو تحفيظ القرآن وشرح السنة. غير أن بساطة الأدوات وضعف الإمكانيات حال دون الانتقال بهذا التعليم وتطوير أساليبه. كما نعلم أن انتشار الثقافة المحلية في طابعها العامي في أنحاء الجزائر، لم يكن وليد الحياة الفكرية الثقافية المزدهرة على العهد العثماني. بل تدهور الثقافة وضعفها هـ والذي ساعد على التخلي عن اللغة

العربية الرسمية لصالح اللغة الشعبية العامية. ومكنت من انتشارها، حيث طرقت جميع الموضوعات، التي كانت في العهد الوسيط تتناولها اللغة العربية الفصحى، ولكن معرقلات نمو اللغة وانتشار الأدب كانت أقوى من المشجعات. فالولاة كانوا لا يفقهون العربية ولا يتذوقون أدبها³، هذا ما يفسر عدم اهتمام العثمانيون باللغة والأدب في الجزائر، ولم يشجعوهما باستثناء القلة منهم وقد زال بزوالهم. بالإضافة إلى هذا منافسة اللغة التركية للغة العربية ولكل ما هو رسمي. كما أن المثقفين من أدباء وعلماء أحنوا في كتاباتهم، وخاصة في أشعارهم تلغيزا ليفهمه الخواص وتعبيرا ليفهمه العوام. كل هذا ساهم بنصيب كبير في تردي الأوضاع العامة إجمالا.

-فترة الاحتلال الفرنسي

لقد وجد المحتل الفرنسي الجزائر على هذا الحال، فاستغل الظروف وعرف بأن العروبة تمثل طبيعة في عداد الطبائع وبعدا ضمن الأبعاد، وأنها رصيد ثروتنا التاريخية والثقافية. أدرك الاستعمار الفرنسي هذه الحقيقة أكثر مما أدركها اليسار الفرنسي، وهو عينه الذي أقدم على غزوة لا هوادة فيها ضد اللغة العربية وضد ركيخته الروحية التي هي الإسلام⁴.

فالعهد العثماني ساهم بقصد أو بغير قصد في تسهيل ارتكاب الجرائم التي خطط لها المستعمر الفرنسي ونفذها بقوة. وقد شملت في أبعادها المعنوية ثلاث مرتكزات؛ تمثل قاعدة الكيان الجزائري ووجوده: الثقافة، اللغة، الدين.

فالثقافة هي الوعاء الذي يحوي الهوية الشخصية للمجتمع الجزائري، وهذه الشخصية تقوم على أساس اللغة والدين الإسلامي بالإضافة إلى المكونات الأخرى من عرف وعادة وتقليد، تعبر عنها اللهجات المحلية من أمازيغية وفروعاتها. فقام أول ما قام به، الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، وصادر معظم معاهد التربية والتعليم بالعربية، التي كانت موجودة قبل الاحتلال، وحول الباقي إلى معاهد للتعليم الفرنسي الخالص⁵. هذا بالإضافة

إلى إدخال أسلوب حياتهم بداية بالحواضر؛ من طريقة لباس وأكل وكل ما يمثل حضارتهم وبالأخص ما يمثل الانحلال الخلقي، وذلك لفصم عرى التراث الذي يتركه الجيل السابق لللاحق، ويبث فيه السموم بدعوى التحضر. وهي السيرة ذاتها التي جعلتها ذريعة لاحتلال الجزائر.

لقد ركز على الإنسان فردا وجماعة، ولا أبلغ ما عبر عنه جاك بيرك عالم الاجتماع الفرنسي عند تحليله للظاهرة الاستعمارية، حيث يقرر خلال زيارته الأخيرة للجزائر العاصمة: (أن الإنسان يستعيد طبيعة معينة، وهذه الطبيعة تستكشف لها من جديد ثقافة معينة⁶. وبهذه الجملة الموجزة يقدم لنا تحليلا سوسيولوجيا عن طبيعة وجود هذا الكيان (الجزائر) التي طمست وهي تستعيد الظهور الذي يستلزم لذلك ثقافة معينة بلا شك ثقافة المجتمع الجزائري وتلك هي هويته الشخصية.

-الدين الإسلامي والتنصير

سلك الاستعمار الفرنسي نفس سياسة الاستعمار الروماني⁷ "فرق تسد"، وذلك بتشجيع الروح القبلية، وخلق النزاعات الإقليمية. وقد اعتمدت في ذلك على الكتابات التاريخية والسياسية، والاجتماعية والثقافية للجزائر وكل مناطقها. حيث تناولت كتابات التاريخ الروماني المسيحي بالإشادة والتبجيل، وفي المقابل تصوير الفتوحات الإسلامية على أنها غز وفرض الإسلام بحد السيف الذي فصل الفرع عن الأصل⁸.

-دور الانتوغرافيين

عمل هؤلاء على التعرف بكل المقاييس على السكان الأهالي، وقد عمل على ذلك كل من؛ الضباط العسكريين، والرحالة، والمبشرين. وتناولت دراساتهم: العادات والتقاليد، وأنماط المعيشة، وقسموا في دراساتهم بين السكان فجعلوا البربر⁹، وهم السكان الأصليون، والعرب وهم الغزاة. ولا يخفى على أحد ما قام به الكاردينال لافيغري، ونستدل بدعواه حيث صرح: (أن القبائل ما كانوا ليعرفوا القرآن أبدا لو لم تقم فرنسا بتعليمه إياهم). في

حين أن القبائل كانت أراضيها تعج بالمدارس القرآنية والزوايا الكبيرة؟ ورغم جهوده فشل في تنصير المجتمع الجزائري ومرد ذلك إلى:

- تمسكن السكان الدين الإسلامي .
- تركيز المبشرين على الأطفال اليتامى.
- غلق المدارس الدينية أثار عزيمة التحدي .
- ثورة الطريقة الرحمانية ودفاعها عن الدين الإسلامي.

وفي عهد الحكم المدني زادت وتيرة التبشير دون حدوث تنصير إلا بنسبة لا تكاد تذكر، ورغم تأسيس فرقة الآباء البيض وإنشاء المراكز التبشيرية على سبيل المثال لا الحصر:

- مركز تاغمونت في بني عيسى 1873

- مركز خراطة في بني إسماعيل 1874

- مركز إغيل في بني عباس¹⁰ 1879

وأوصى لافيغري رجال الدين في هذه المراكز بضرورة التسامح، والصبر وتقبل كل الإساءات، وتقديم المساعدات في إطار الأعمال الخيرية، وتعليم الأطفال، ثم الاندماج باستعمال لغة سكان المحلية، وعدم مباشرة التبشير الذي ينفر بدل أن ينصر. وكل هذا يدخل ضمن الصراع الأنف الذكر: بين الهوية والانتماء والضد منهما. غير أن الشعب الجزائري قاوم ذلك وانتصر في الأخير. لأن عنصر الهوية والانتماء قادا الشعب الجزائري إلى النضال. فتورة نوفمبر الخالدة تحققت بالقوة والإرادة والعزيمة؛ ما هي إلا نتيجة الثورة التي تحققت بالفكر والثقافة والتاريخ. فكل من الحركة الإصلاحية والتيارات السياسية تكاملت من حيث الوظيفة في إحراز الحرية والاستقلال، وإن كان هناك من فضل فه ويعود في شق إلى دور الزوايا، التي كانت بمثابة صمام الأمان والحلقة الأخيرة والأصعب التي لم يفلح الاستعمار في كسرها.

لقد اضطلعت الزوايا بالدور الذي جمع كل المقومات الثقافية، المشكلة من العرف والعادة والتقليد واللغة والدين الإسلامي، وبذلك يكفها نضالا وفخرا أنها صانت هوية المجتمع الجزائري وتأكيد انتمائه الحقيقي.

-اللغة العربية والفرنسية:

انتماء المجتمع الجزائري إلى الوطن العربي الإسلامي، شكل جدار أمام الاستعمار الفرنسي لارتباطه الدين باللغة، وفي هذا الصدد قام الاستعمار بخطوات من شأنها القضاء على اللغة العربية، وهذه الجريمة لا زلنا نجني شوكها إلى اليوم. لقد جعل التعليم في كل المدارس الحديثة باللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الحية، ومنع تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية؛ لقطع الصلة بين الأجيال، وعلى خط مواز قام بفرنسة الإدارة في سياق فرنسة الجزائر من الفكرة إلى التطبيق¹¹، ووصل به الأمر إلى إصدار قانونا رسميا عام 1938م، اعتبر اللغة العربية بمقتضاه لغة أجنبية في الجزائر. لقد لاقت اللغة العربية من الإهمال أكثر مما لاقت غيرها من العناصر الأخرى للهوية التي تشكل الشخصية الجزائرية، والفرنسة تعي إحلال الثقافة الفرنسية بكل مكوناتها مكان الثقافة الجزائرية بكل مكوناتها¹²، وبتقادم الزمن تستعيز اللغة العربية باللغة الفرنسية، ويتم بذلك إخفاء أي اثر يمت بصلة إلى اللغة العربية، وقد عملت على ذلك طوال 132 سنة. وعند ظهور الحركة الإصلاحية، حاربت فرنسا التعليم العربي الحر، بفرض شروط تعجيزية لمنح الرخص، وفي ذات الوقت مصادرة المرخص منها سواء للمنظمات الوطنية أو المعلمين، وخاصة الأحرار منهم، ومنع التعليم في المساجد، وتعطيل النوادي والتضييق عليها. أدى كل ذلك إلى غلق كثير من المساجد والمدارس الخاصة بالتعليم العربي. وإذا التقى التنصير بالفرنسة تتحقق فكرة: (الجزائر فرنسية) قلبا وقالبا. لقد رسم الاحتلال الفرنسي لذلك خطط طبقت بدقة وشراسة وعنف تمثلت في: محاربة اللغة العربية بلا هوادة، وفرنسة التعليم في جميع المراحل الدراسية، واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية، كما عمدت إلى تقسيم اللغة إلى فصحي وعربية حديثة وعربية عامية، عملا بنظرية فرق تسد. لقد دقت إسفين بقوة في ظهر المجتمع الجزائري وحققت بذلك بعض الأهداف الجزئية.

فكل التيارات في الجزائر السياسية والإصلاحية والاجتماعية، والدينية (الطرق الصوفية والزوايا) التقت على هدف واحد هو الذي انهي صراع الهوية والانتماء إلى الأبد.

-الهوامش

1- Arthur Doucey Et Francis Moheim , Les révolutions algériennes , Librairie Arthém Fayard , 1971, P208

2- أُرجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة، عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، ص30

3- سعد الله أب والقاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/1981م،

ج2، 178

4- عبد العزيز الخالدي، مجلة المعرفة، الثروات الدائمة، العدد3، السنة الأولى، 1373هـ/1963م، ص13

5- رايح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والطبع والتوزيع، 1981م، ط2،

ص103

6- عبد العزيز الخالدي، مجلة المعرفة، المرجع السابق، ص13

7- أدت الحاجيات إلى الأرض بالرومان إلى إلحاق البلاد، وكان الجيش الوسيلة الممتازة للاستيطان والسيادة الرومانيتين. ودفع البربر الذين نهبت أراضيهم إلى الصحراء، الذين ظلوا باقين داخل الليمس، باستثناء أقلية بورجوانية مرونة، كانوا هم العمال المضطهدين، الذين يدين لهم الرومان بثرواتهم وازدهارهم. أما الإدارة فكانت تختلف تبعا لأقدمية ودرجة رومنة الجهات، وكذلك الحال فيما يخص نظام المدن ووضع الأفراد. فقد كانت روما بأربعة جهات في فن فرق تسد. قداش محفوظ، الجزائر في العصور القديمة، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص167

8- تعتبر فرنسا ن الجزائر كانت رومانية مسيحية، ويمكن لسكانها العودة إلى دينهم المسيحي الذي هو الأصل.

9- هذه التسمية لا تعني الأمازيغ، بل هي كلمة تطلق على الشعوب المتخلفة في نظر الرومان، ومن جاء بعدهم كالاستعمار الفرنسي، وإنما سكان الجزائر أمازيغ بلجاتهم المختلفة وعربهم الإسلام، ليس اللغة فحسب بل أضاف لهم الدم العربي، بفعل المصاهرة، فأوجد جيلا يعتز بكل مكوناته العربية الأمازيغية والإسلام.

10 - خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، 1830-1871م، دط، 1977، ص156

11 - اعتبر الاستعمار الفرنسي الجزائر أرض فرنسية، وألحقها بالأم في قانون جائر فبع فرنسا التراب، طبق فرنسا الإنسان حتى يحقق مراميه وأهدافه.

12 - نتحدث هنا عن الشخصية الوطنية وليس الجنس والعرق، فالفرنسي نسبة إلى فرنسا والألماني نسبة إلى ألمانيا، وليس الآرية والسامية أو الهامية، ولذلك فالفرنسة تعني تحديدا التعامل باللغة الفرنسية في كل مقتضيات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.